الاقاعي واقوال العرب فيها

رأينا لجاحظ فصلاً مسهباً في الاقاعي جمع فيهِ كثيراً من اقاصيص العرب التي احلَّها كتَّابهم محل الحقائق فلخَّصنا منهُ السطور التالية وعقَّبنا عليها بما نتم بهِ الفائدة

قال "حدَّثنا ابو جعفر الكفوف النحوي العنبري واخوهُ روح الكاتب ورجال من بني العنبر ان عندهم في رمال العنبر حية تصيد العصافير وصغار الطير باعجب صيد . زعموا انها اذا انتصف النهار واشتدَّ الحر وامتعت الارض على الحافي والمنتعل ورمض الجندب غمست هذه الحية ذنبها في الرمل ثم انتصبت كأنها رتع مركوز او عود نابت فيجيءُ الطائر الصغير او الجرادة فاذا رأى عوداً قائماً وكره الوقوع على الرمل لشدَّة حرِّهِ ووقع على رأس الحية كأنها عمود نبت عليهِ فان كان جرادة او جعلاً او بعض ما لا يشبهها ابتلعتهُ وثبتت على انتصابها . وان كان الواقع على رأسها طائراً يشبهها كتتهُ وانصرفت . وان ذلك دأبها ما منع الرمل جانبهُ في الصيف وانتبط في انتصاف النهار والهاجرة . وذلك ان الطائر لا يشك ان الحية عود وانهُ سيقوم لهُ مقام الجذل للجرباء الى ان يكن الحر ووهج الرمل . وفي هذا الحديث من العجب ان تهتدي الحية الى مثل هذه الحيلة وان يجهل الطائر الفرق بين الحيوان والعود وان لا تكترث الحية للرمل الذي صار كالجمر" . انتهى

نقول وهذه القصة على غرابتها محتملة ولها امثلة كثيرة في احتيال الحيوان على صيدهِ وتشكلهِ باشكال الاوراق والاغصان والعيدان اغراءً لما يصطادهُ من ضروب الحيوان او اختفاءً عما يكون هو صيداً لهُ . ولكننا لم نعثر في ما طالعناهُ عن الاقاعي في كتب المحدثين على ما يؤيدها فقد ذكر ترمترام وفيرار وبروس كثيراً من نوادر الاصلال التي في صحاري مصر وبلاد العرب ولكنهم لم يذكروا ان منها ما ينتصب كالعود . والغالب ان الصل يقيم في الرمل وينصب رأسهُ قائماً ولكنهُ لا ينصبهُ شركاً للطيور بل تحفزاً للوثوب على ما يدنو منهُ من الحيوانات . قال القانون ترمترام انهُ كان راكباً مرةً في الصحراء فوقف فرسهُ بغتةً وجعل يرتجف ويتصبَّب عرقاً ويحث عن السبب الذي اوقفهُ فاذا الصل نائمهُ في حفرةٍ من الارض وعيناهُ تقدحان شرراً وهو متهيء للوثوب على الفرس . وهو اذا لدغ الانسان قتلهُ في نصف ساعة واذا لدغ الفرس قتلهُ في بضع ساعات

اما وقوع الطيور على الاقاعي فذكرهُ كثيرون من المحدثين وصوَّروهُ كما ترى في الصورة التالية وقالوا ان الاقعى تفتح فاها فيصيب الطائر شيءٌ من الدهول ويرمي نفسهُ فيهِ

متخذة غيضة باردة. ولعل العرب شاهدوا الافاعي تعمل ذلك فظنوا بان الطيور تقع على الافعى حمية اياها عود لقف عليه

وذكر الجاحظ ان اذناب الافاعي تنبت بعد انقطاعها واما ابنها تقع فتنبت في اقل من ثلاث ليال وانه اذا ادخل في فيها حماض لا ترج وانطبق فيها الاعلى على الاسفل فلا تقتل بعضها اياها كالمغنطيس الجاذب للحديد فانه اذا حك عليه القوم لم يجذب الحديد

تقول اما كون اذنابها تطول بعد قطعها فمحتمل لان اذناب العظايات تنبت بعد قطعها واما ابنها فلا تنبت ولكن لها ابناء اخرى صغيرة تطول فتقوم مقامها. وكذلك زوال سمها بحماض

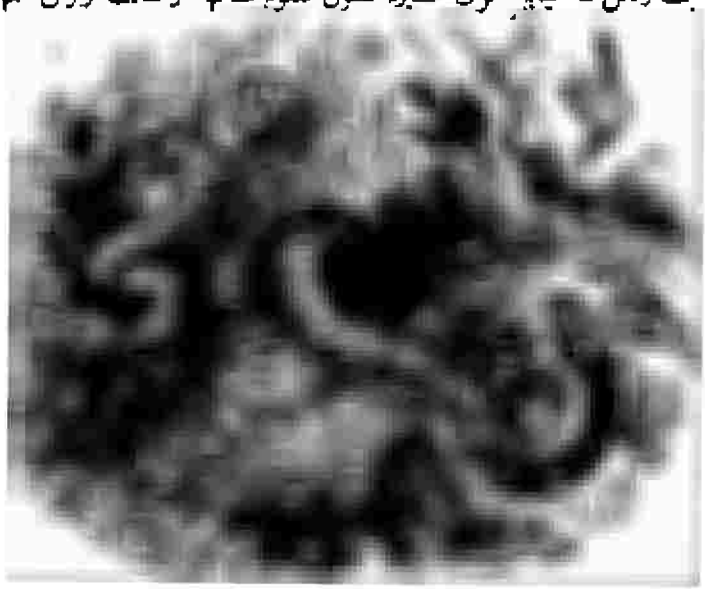

الاترج محتمل اذا كان السم قلويًا. ولكن لا محمد فانه من ان القوم اذا حكّ على المغنطيس منعه من جذب الحديد

قال والافعى تلد وتبيض وذلك انها اذا طرقت بيضها تحصر في جوفها فتري فراخها اولادًا حتى كأنها من الحيوان الذي يلد حيوانًا مثله

تقول والصحيح ان الافاعي انواع فبعضها يبيض بيضًا وبعضها يلد ولادًا وبعضها يبيض ويلد معًا فيخرج بعض اولاده بيضًا وبعضهم فراخ . واما بيض ما ان تحضن بيضها كالطيور واما ان تتركه لتخرج الفراخ منه بحرارة الارض والثاني هو الغالب . وقد ارتاب العلماء في ان الافعى تحضن بيضها حضنًا الى سنة ١٨٤٠ وحينئذٍ كانت افعى افريقية في بستان النبات

باريس فباضت ١٥ بيضة في ٦ مايو وكان يضها مستطيلاً لدن القشر فجمعتهُ وانثت عليهِ حتى غطتهُ كلهُ واقامت على ذلك ستة وخمسين يوماً لا تبدي حركةً الاَّ اذا حاولت احد لمس بيضها . وفي الثاني من يوليو الشق عشر بيضة وفي اليوم التالي خرج منها فرخ ثم خرجت ثمانية فروخ في الايام الاربعة التالية ومذر باقي البيض . وعاشت الفراخ وسلخت لما صار عمرها اسبوعين ثم صارت تبتلع العصافير الحية كأُمها

قال وفي الافاعي من العجب انها تذبح حتى يفرى منها كل ودج فتبقى كذلك اياماً لا تموت فامرت الحاوي فقبض على خرزة عنقها فقلتُ لهُ افصلها من الخرزة التي تليها فصلاً دقيقاً فما فتح بينها بقدر سم الابرة حتى بردت ميتةً . يزعم انهُ قد ذبح غيرها من الحيات فعاشت شبيه ذلك ثم انهُ فصل تلك الخرزة على مثال ما صنع بالافعى فماتت باسرع من الطرف

نقول ويشبه ان يكون المراد بذلك ان الافعى لا تموت اذا ذُبحت ما لم تصبها صدمة عصبية بعد ذلك

قال وفي صعود الافاعي وفي مشيها خطف الرجل الشديد الخضر او عند هربها منهُ حتى تفوت وتسبق وليست بذات قوائم وانما تساب على بطنها وفي تدافع اجزائها وتقاوتها في حركتها الكل من ذات نفسها دليلٌ على افراط قوة بدنها . ومن ذلك انها لا تمضغ انما تبتلع فربما كان في البضعة او في الشيء الذي ابتلعتهُ عظم فتأتي جذع شجرة او حجرًا شاخصاً فتطوي عليهِ اضلاعهُ شديداً فيتحطم ذلك العظم حتى يصير دقاقاً

نقول ولا شبهة في قوة الافاعي اما انيابها فيكون بحركة اضلاعها فهي كالقوائم لها وهي لا تمضغ طعامها ولكنها تبتلعهُ كما هو وقد يبقى حيًّا في بطنها مدة . قد ذكرنا انا شققنا بطن الافعى مرارًا وكنا نجد فيهِ فارةً حية او ضبًّا حيًّا . ولم نرَ احدًا من علماء الحيوان ذكر اضلاعها حول جذع الشجرة او الحجر الشاخص حتى تكسر عظام الحيوان الذي ابتلعتهُ ولكنهم ذكروا انها تنطوي على الحيوان الكبير قبل ابتلاعهِ حتى تتكسر عظامهُ كما ترى في الصورة التالية ويسهل عليها ازدرادهُ ويساعدها على ازدرادهِ لعابها الكثير الذي ترطبهُ بهِ وهي تزدردهُ

قال وليس في الحيوان شيءٌ هو اصبر على الجوع من حية لانها ان كانت شابة فدخلت في حائط فتتبعوا موضع مدخلها بوتد او بحجر ثم هدموا ذلك الحائط وجدوها هناك منطوية وهي حية . فان هرمت صغرت في بدنها واتسعها النسيج ولم تشتهِ الطعام وقد قال الشاعر وهو جاهلي

فابعث لهُ من بعض اعراض الثم ... لمةً من حنش يعمى اصم
قد عاش حتى هو لا يحشى بدم ... فكلما افضل منهُ الجوع سم

ومن اعاجيبها انها وان كانت موصوفة بالشره والنهم وسرعة الابتلاع فهو في الصبر في ايام الشتاء ما ليس لغزهيد ثم في بعد ما يصبرها يخان الى ان تستغني عن الطعام

نقول لقد اصاب صيف صبر الافعى على الجوع وكفافها بالقليل من الطعام فقد تمر بالافعوان ان افعى الماء الانكليزية تكتفي بضفدعين او ثلاثٍ في السنة كلها وهي قد تصبر على العطش ايضاً وكثير كالحيوانات الثانية تنقطع عن الطعام الشتاء كلهُ

قال والثعابين احدى القوائم ويزعمون انها ثلاثة اجناس لا يجمع فيها رقية ولا حيلة كالثعبان والافعى والمندية ويقال ان ما سواها فانما يقتل مع ما يعدهُ من الفزع . ويزعمون ان رجلاً قال (اي ناموا نصف النهار) تحت شجرة فتدلت عليهِ حيةٌ منها فعضت رأسهُ فانتبه

محمر الوجه فحكَّ رأسهُ والتفت فرأى حيةً فوضع رأسهُ ليناموا وقام مدةً طويلة لا يرى بأساً فقال لهُ بعض من كان رأى حالهُ هل علمت من اي شيء كان انتباهك تحت الشجرة قال لا قال ان الحية الثلاثية نزلت عليك حتى عضت رأسك فلما جلستَ لتقتلها عنك وتراجعت فزعةً وصرخ صرخةً كانت فيها نفسهُ . وكأنهم يزعمون انهُ من الفزع واضطراب وقد كان ذلك السم مقبوراً ممنوعاً فزال مانعهُ وتفتحت مثانتهُ الى موضع التجويف والدماغ وتحلل الجسم فالحق موضع العقد الذي انعقدت عليهِ جزؤهُ وانحلاطهُ

نقول لقد احسن الجاحظ في تسميته كل ذلك الى الزعم لانهُ يريد بهِ القول الذي يعتقد كذبهُ لان الافاعي اسامة كثيرة وفي نقل بعضهم بلا مشاركة للفزع في ذلك ولا وجه لما نكلفهُ من التعليل

وقال كنت يوماً عند ابي عبد الله احمد ابن ابي داود وكان عنده ابن ماسويه[1] وبختيشوع بن جبريل[2] فقال من ينفع الترياق من نهشة افعى فقال بعضهم اذا عضت الافعى فادركت قبل ان تنقلب نفع الترياق وان لم تدرك لم ينفع لانهم اذا قلعوا من الترياق قتلهُ السم وان كثروا منهُ قتلهُ الفاضل عن مقدار الحاجة . قلت فان ابن المجوز خبّرني بانها ليست تنقلب لمج السم وافراغهِ ولكن الافعى في نابها عضل واذا عضّت استفرغت ادخال الناب كلهِ وهو اعجز اعضل فاذا انقلبت كان اسهل لنزعهِ وسلهِ فاما لعب السم وافراغهِ فلا . قال والله لعلهُ ما قالهُ . قلت ما اسرع ما شككت . ثم قلت لهُ فانا وضعوا الترياق واجتلبوا الافعى وضعوا وعزّموا على انهُ لا ينفع الاَّ بدرك الافعى قبل ان تنقلب وكيف صار الترياقُ بعد الانقلاب لا يكون الاَّ في احدى منزلتين اما ان يقتل بكثرتهِ واما ان لا ينفع بقلتهِ فكأن الترياق ليس تنفعهُ الاَّ المنزلة الوسطى التي لا تكون فاضلة ولا ناقصة . ولكني اقول لك كيف يكون تنفعهُ . اذا كان الترياق جيداً قوياً وعوجل فسُقي المقدار الاوسط قبل ان يبلغ السميم ويغوص في العمق وعلى هذا وُضع . وهم كانوا احزم واحذق من ان يتكلفوا شيئاً ومقدارهُ من النفع لا يُوصَل الى معرفتهِ . ثم قلتُ لهُ وما علمك وباي سبب علمتَ انها تجُّ من جوف نابها شيئاً ولعلهُ ليس هناك الاَّ مخالطة جوهر ذلك الناب لدم الانسان أوَ لسنا نجد من الناس مَن يعضُّ صاحبهُ فيقتلهُ ويكون معروفاً بذلك . وقد تقرُّون ان الهندية والثعبان يقتلان اما لمخالطة الريق الدم واما لمخالطة السن الدم من غير ان تدّعوا ان اسنانها مجوفة . وقد اجمع جميع اصحاب التجارب ان الحية تُضرَب بقصبة فتكون اشد عليها من العصا . وقد يضرب الرجل على جلدهِ بقضبان اللوز وقضبان الرمان وقضبان اللوز اعلك والدن ولكنها اسلم وقضبان الرمان اخف ولكنها اعطب . وقد يطأ الانسان على عظم حية وابرة عقرب وهما ميتتان فيتفق الجهد وقد يخرج السكين من الكور وهو محمّى فيغمس في اللبن فتى خالط الدم قام مقام السم وبعض الحجارة يكوى بها رخو الاورام حتى يفرقها ويحمصها من غير ان يكون نفذ اليها شيء منهُ وليس الاَّ الملاقاة . وقد روو انهُ قيل لجالينوس ان ههنا رجلاً يرقي العقارب فتموت او تحولُ فلا تعمل فرّاهُ يرقيها ويتفل عليها فدعا بهِ بحضرة جماعة وهو على الريق ودعا بعقاربهِ فتغدّى معهُ ثم دعا لهُ بالعقارب فتفل عليها فلم يجد لعابهُ يصنع شيئاً الاَّ ان يكون ريقاً . وهو حديث يدور بين

(١) هو يوحنا بن ماسويه الطبيب النصراني السرياني كان من اطباء هرون الرشيد وكان معظماً ببغداد وله تصانيف جليلة

(٢) لعلهُ بختيشوع بن جيورجيوس او جبريل ان بختيشوع وكلاهما طبيب مشهور من اطباء الرشيد

اهل الطب وانت طبيب . فلم ارَهُ في يومهِ ذلك قال شيئًا الاَّ من طريق الحزر والحدس والبلاغات انتهى

نقول وكنا نودُّ ان يحضر ذلك المجلس وتسمع علماء العرب يتناظرون في هذا الموضوع . ابن ماسوية وابن جبريل طبيبان حكيمان قليلا اللفظ كثيرا المعنى يكرهان الجدل ويميلان الى التسليم ويخشيان من بث الاحكام في المسائل الخلافية كأنهما من طائفة اللاأدريين . والجاحظ منطقي من اهل الجدل كثير الكلام دقيق الانتقاد يأخذ بالمسلمات ويميل الى المغالطات . وحقيقة ما اختلفوا فيهِ ان السم مادة سائلة تنفث من اجربة في افواه الافاعي وتمرُّ في ثقب او ميزاب في انيابها لان من الانياب ما هو مثقوب ثقبًا ومنهُ ما فيهِ ثلمة كالميزاب فاذا كان الجراب كثير السم وتمكنت الافعى من اللسع وكان سمها من الشديد الفعل وكان الملدوغ من الذين يتأثرون بفعل السم قتلت في نصف ساعة او اكثر ولكن اذا كان السم قد نفد بلدغة سابقة او اذا لم تتمكن الافعى من اللدغ او اذا كان السم ضعيف الفعل طبعًا او كان الملدوغ من الذين لا يفعل السم بهم شديدًا لم يقتلهُ السم . ومباشرة الناب للجرح لا تميت اذا لم يكن هناك سمٌّ . اما ترياق القدماء فالمرجح عندنا انهُ لم يكن يفيد شيئًا . واما ما قيل عن الضرب بالقضيبة وقضيب الزمان فمن المسلَّمات التي لا دليل على صحتها . واما كون الريق يضرُّ بعض الحيوان فصحيح ولكن ليس كما اوردوهُ

قال وحدثني بعض اصحابنا عن سكر الشطرنجي وكان احمق العالمين واحذقهم بلعب الشطرنج وسألهُ عن خرق في خزامة انفهِ فذكر انهُ خرج الى الجبل يكتسب بالشطرنج فقدم البلدة وليس معهُ الاَّ درهم واحد وليس يدري انجح ام يخفق ويجد صاحبهُ الذي اعتمدهُ ام لا يجدهُ فورد على حوَّاء وبين يدهِ جوز عظام فيها حيَّات جليلة والحية اذا عظمت لم تكن غايتها النهش والعض ولكنها لا تعض الاَّ للاكل وربما كانت الحيات عظامًا جدًّا ولا سيما هذا البلد ولا تعقر بالعض كحيات الجولان . وفي البادية حية يقال لها الحفاث تأكل الفار واشباه الفار وهذا وعيد منكر ونفخ في ظهار للصولة وليس وراء ذلك شيء والجاهل ربما مات من الفزع منها . وربما جمعت الحية السم وشدة الجرح والعض والابتلاع وحطم العظم . فوقف سكر على الحوَّاء وقد اخرج من جوفهِ اعظم حيات سعى الارض وادَّعى نفوذ الرقية وجودة الترياق فقال لهُ سكر خُذ مني هذا الدرهم وارقني رقية لا تضرُّني معها حية ابدًا . قال فاني افعل . قال فارسل قبل ذلك حية حتى ترقيني بعد ان تعضني فان انقذت علمت ان رقيتك صحيحة . قال فاني افعل فاختر بيضهنَّ شئت فاشار الى واحدة مما تعضُّ للاكل دون السم فقال

دع هذه فانها ان قبضت على لحيتك لم تفارقك حتى تقطعك. قال فاني لا اريد غيرها وظنّ انهُ انما رواها عنهُ لفضيلة فيها. قال اما هذا البيت الاَّ هذه فاختَرْ موضعاً من جسدك حتى ارسلها عليهِ فاختار انفهُ. فاشدهُ وخرّقهُ فابى الاَّ ذلك او يردَّ عليهِ درهمهُ. فاخذها الحوّاء وطوّقها على يدهِ كيلا يدعها تفكّ فتقطع انفهُ من اصلهِ ثم ارسلها عليهِ فلما انشبت احد نابيها في شق انفهِ صرخ صرخة جمعت عليهِ اهل تلك البلدة ثم غشي عليهِ فأخذ الحوّاء فوضع في السجن وفتحوا تلك الحيات وتركوهُ حتى افاق فتطوّعوا بحملهِ لحمايتهُ مع المكاري ورددوهُ الى البصرة وبقي اثر قبلها في انفهِ الى ان مات

نقول ومفاد ذلك ان الجاحظ واهل زمانهِ كانوا يعلمون ان من الحيات ما لا سمَّ فيهِ وان كبار الحيات لا سموم لها في الغالب وان منها ما يتظاهر بالقوة والصولة ولا سمَّ لهُ وان نفع الرقية زعم من المزاعم وذلك كلهُ صحيح

قال والعرب تقول اظلم من حيّة لان الحيّة لا تتخذ لنفسها بيتاً وكل بيت قصدت نحوهُ هرب اهلهُ منهُ واخلوهُ لها. والورل يقوى على الحيات ويأكلها اكلاً ذريعاً. وكل شدَّة يلقاها ذو حجر منها فهي تلقى مثل ذلك من الورل. والحيّة واسعة الشجر (فتحة الفم) وهي تبتلع فراخ الحمام. وزعم صاحب المنطق انهُ ظهرت حية لها رأسان فسألتُ اعرابياً عن ذلك فزعم انهُ حق فقلت لهُ اي جهة الراسين تسعى ومن ايهما تأكل وتعض فقال اما السعي فلا تسعى ولكنها تسعى الى حاجتها بالتقلّب كما يتقلّب الصبيان على الرمل واما الاكل فانها تعشى بهم وتتغدى بهم واما العض فانها تعض برأسيها معاً. فاذا بها اكذب البرية وهذه الاحاديث وما يشاكلها ممَّا يزيد في الرعب منها

نقول ولقد احسن الجاحظ في تلقيبهِ هذا الاعرابي باكذب البرية. ولكن من الحيات نوع صغير قصير طولهُ نحو قدمين وهو حية الرمل المصرية (Eryx jaculus) ولا سمَّ فيها وذنبها قصير كأن لا ذنب لها فيقبض عليها الحواة ويعالجون ذنبها بالقطع حتى يصير كرأسها ويزعمون انها برأسين وكثيراً ما يفعلون ذلك في بلاد الهند وهذا اصل الزعم بوجود حية برأسين. اما ظلم الحية لغيرها من الحيوانات باغتصاب اجحرتها فلم يرَ لهُ ما يثبتهُ في اقوال المحدثين ولكنهُ ليس ببعيد عن التصديق لان اكثر ذوات الاجحار كالضباب والفيران والجرذان طعام الافاعي وشأن ما يكون طعاماً لغيرهِ ان يهرب من وجههِ. وستأتي لمحة الكلام على الافاعي في الجزء التالي